نحو صياغة اسلامية لنظرية الامن القومي

غالب الشابندر

قد ينصرف الذهن إلى الايحاءات والايماءات التي تعطيها مفردة (القومي) الواردة في العنوان وهذا _بالطبع _ يحكم بالتناقض الفاضح صميم الدراسة المطروحة، بل يدعو إلى رفضها من الأساس لأنها تقوم على مصادرة أبسط البديهيات الإسلامية خاصة إن (القومية) لم تعد في الفكر السياسي الحديث إطاراً عاماً للإنتماء إلى هذه الأمة أو ذلك الشعب، وإنما هي بنظر العديد من المفكرين الغربيين فلسفة في الحياة والسياسة والتشريع! وتشكل منبعاً حيوياً للتنظير في حركة التاريخ وتفسيره... هذا الإنصراف ليس في محله، إن (الأمن القومي) هنا مصطلح علمي صرف، وهي غير الرؤية القومية في الإتجاه السياسي، إن (الأمن القومي) يتعلق بالأوضاع والأجواء والقواعد الإقتصادية والعسكرية والأخلاقية والفكرية في سياق غاية محددة، ألا وهي حماية النظام من السقوط.. إنه أقرب إلى العلم منه إلى المذهب وإن كان للأخير تأثير كبير في (الموضوعية) بصورة عامة، ونعتقد إن هذا الإلتباس يمكن تلافيه والتثبت من مفارقته من خلال التطرق إلى الموضوع بالبيان المفصل.

التعريف بالأمن القومي

ليس هناك (تعريف) ثابت لموضوع الأمن القومي وهذا واضح من تتبع التعاريف المساقة في هذا المضمار، ولكن هذا العجز في صياغة تعريف واحد للقضية له اسبابه ومبرراته لعل من أهمها:

أ- إشكالية التعريف بحد ذاته، فهو يستوجب تحضير ما يستحيل تعليله على نحو يصيب كبد الحقيقة الذاتية. وذلك مما لا تناله العقول بسهولة أو تقع عليه التجارب ببساطة.

ب- إن (الأمن القومي) وإن كان موضوعاً علمياً إلا إنه يتأثر بالموقف الايديولوجي والنظرة الكونية إلى الحياة والتاريخ.

ت- حداثة الموضوع النسبية وفقدان التراكم (المعلوماتي) في صدده.

وبلحاظ هذا التقدير تعددت (التعريفات) وتباينت الى حد كبير.. ونحن هنا نستعرض جملة منها مع ابداء بعض الملاحظات النقدية..

التعريف القيمي الاستراتيجي

طبيعة هذا التعريف تتركز في التأكيد على (القيم) ولذلك صارت القيمة مادة اشتقاق عنواني للتعريف المذكور. فالقيم هي محور الأمن القومي بنظر هذه المدرسة، مع العلم أن هناك أكثر من تعريف ضمن هذا السياق الواحد فالأمن القومي هو:

أ_ قدرة الأمة على حماية "قيمها الداخلية" من التهديدات الخارجية.

ب_ حماية القيم التي سبق إكتسابها.

ج_ غياب الخوف على تلك "القيم" من أي هجوم.

د_ ذلك الجزء من سياسة الحكومة الذي يستهدف ايجاد شروط سياسية دولية ووطنية ملائمة لحماية أو توسع "القيم الحيوية" ضد الأعداء الحاليين والمحتملين.

إن نقطة التشابك أو الألتقاء بين هذه (الباقة) من التعريفات تتحدد بـ "القيم" ولكن ما هي هذه القيم؟ وكيف نميز بين الأساسي منها والثانوي؟ ومن هي الجهة التي تحددها وتمهر عليها بضرورة البقاء والاستمرار؟ وكيف الحال إذا إستتب

نظر فوضوي عارم حول هذه القيمة أو تلك؟ وماذا لو تناقضت القيم بين القيادة الحاكمة والقاعدة الشعبية ثم ملاحظة أخرى حول هذه المجموعة من التعريفات، إن التباين هائل وكبير بين مداخلها، (قدرة، حماية، غياب... الخ) ولعلنا نستطيع أن نكتشف بوضوح إن التعريف (ب) ينطلق من زاوية موضوعية، في حين إن التعريف (ج) يتعامل مع الأمن القومي من الزاوية غير الموضوعية، فالفارق عميق بين أن تكون حقيقة ما أو شيئاً ما محل إهتمام لأنه أصبح مضمونا بسبب من الأسباب.

التعريف الاقتصادي الاستراتيجي

ينطلق هذا التعريف من القضية الإقتصادية ليجعلها جوهر (الأمن القومي) وقد زاد الإعتماد على هذا النوع من التعريف إثر أزمة الطاقة في عام (١٩٧٣)، حيث برزت في الأثناء معالم قلق على الحاضر وليس المستقبل! وتنادت الصيحات في العلم الغربي لتقرع نواقيس الخطر الداهم! من هنا ظهرت تعاريف جديدة (للأمن القومي) ناظرة إلى أن روح المسألة وجوهرها وهدفها هو وبكلمة قاطعة (القضية الإقتصادية) ولكن بأي معنى وبأي أفق؟ لندقق النظر في هذه البيانات:

أ_ يعرف كروزوناي الأمن الاقتصادي بأنه غياب التهديد بالحرمان الشديد من الرفاهية الإقتصادية.

ب_ يرى فوستمر "إن للأمن القومي أسسا ثلاثة، الأساس الإقتصادي والأساس السياسي والقوة العسكرية".

ج_ يقول ماكنمارا "إن الأمن يعني التنمية، فالأمن ليس هو تراكم السلاح بالرغم من أن ذلك قد يكون جزءً منه، والأمن ليس هو القوة

العسكرية بالرغم من أنه قد يشتمل عليها والأمن ليس هو النشاط العسكر التقليدي بالرغم من أنه قد يحتوي عليه، إن الأمن هو التنمية، وبدون التنمية فلا محل للحديث عن الأمن".

ولعل من الواضح إن هذه (التعريفات) تنطوي هي الأخرى على جملة مفارقات، نذكر أهمها:

❖ التعريف (أ) يوحي بالتطابق التام بين الأمن القومي والأمن الإقتصادي، في حين ليس من الضروري أن تكون الرفاهية الإقتصادية أو السيطرة على المواد الخام يحول دون الغزو الخارجي أو سقوط النظام.

❖ التعريفان (ب) و (ج) إنطويا على إستدراك لما فات التعريف (أ) وذلك باعتبار وجهات أخرى في توفير منظومة شاملة لمفهوم الأمن القومي، ولكن على درجتين متفاوتتين في تقدير هذه الجهات، فالقوة العسكرية مثلا هي أساس إلى جانب الأساس الإقتصادي والسياسي، فيما هي إحدى المفردات ذات القيمة الهامشية في تفكير وزير الدفاع الأمريكي السابق روبرت ماكنمارا.

❖ هناك اضطراب في تحديد المدلول المباشر لجعل الاقتصاد محور أو جوهر "الأمن القومي"، ما المقصود من ذلك؟

❖ هل هو الاكتفاء الذاتي؟ أم هو رفع درجة الدخل القومي؟ أم هو تأمين الحاجات؟ أم هو السيطرة على المواد الاقتصادية؟ أم هو النمو الاقتصادي؟

تصويبات عامة

ولاجل أن نقوم بعملية تقويم كلية وشاملة للفكر الغربي في تصوير موضوع الأمن القومي، يحسن بنا رفع بعض الالتباسات التي ربما تحصل من

فهم بعض المصطلحات والمفاهيم الواردة في السياق.

أ_ ان (القيم) المذكورة في تعريف الأمن القومي لا تعني ذلك البعد الأخلاقي كما يتبادر الى الأذهان وانما هي مفاهيم سياسية بحتة مثل: "السيادة، الاستقلال، الحرية...".

ب_ إن الأمن لا يعني أيضا الاستقرار كما يتصور البعض، انما هو فقرة في نطاقه، أي ان الاستقرار أتوسع فهو داخليا يعني ادارة القوى والصراعات عبر المؤسسات والمرافق، وخارجيا يشير الى امتصاص حالات التحدي والتمكن من الاستجابة الواقية لعناصر الضغط المشتت... الاستقرار علميا يرسم صورة ثابتة للنظام بحيث تؤدي حالة الجمع بين كل المؤثرات الى القيمة (صفر) وهو مثال قياسي أو نموذج دالي ربما لا يتحقق إلا في المجتمع المعصوم "مجتمع الامام المهدي (ع)".

ج_ وقد يختلط على الافهام الأمن القومي بالقوة، خاصة القوة العسكرية، في حين ان ذلك ينطوي على قدم التمييز بين غاية ووسيلة... ان القوة العسكرية احدى وسائل الأمن القومي، لذلك لم نجد هناك تعريفا لهذا الموضوع جوهره أو روحه القوة العسكرية. نعم قد يؤكد البعض أنه أساس في الزمن القومي، وفارق كبير بين التصورين.

المقترب الإسلامي "المفردات"

قال الله تعالى: (وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم). وفي اعتقادي ان الآية الكريمة تعطي أروع معادلة في صياغة (أمن قومي) رصين وعلمي ومتكامل، ولاجل أن تتضح هذه الحقيقة نسرع في إعطاء المعنى الدلالي للكلمات المهمة.

أولاً: الإعداد:

الإعداد: تهيئة الشيء للظفر بشيء آخر وايجاد ما يحتاج اليه الشيء المطلوب في تحققه وإحرازه، مثل إعداد العلماء والمادة الخام والمناهج والمختبرات والعينات النموذجية في صنع تكنلوجيا متقدمة.

ثانياً: القوة:

للقوة في القرآن الكريم أكثر من استعمال، ومنها:

أ_ القدرة، كما قوله تعالى (خذوا ما آتيناكم بقوة).

ب_ التهيؤ الموجود في الشيء ويكون على انحاء.

❖ في البدن (وقالوا أشد منا قوة، فأعينوني بقوة). أي بقوة البدن.

❖ في القلب (يا يحيى خذ الكتاب بقوة). أي بقوة القلب.

في المعاون من الخارج (لو أن لي بكم قوة). قيل معناه: من اتقوى به كالجند والمال.

في القدرة الإلهية (ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين).

ثالثاً: الارهاب:

الرهبة والرهب مخافة مع تحرز واضطراب قال تعالى: (لأنتم أشد رهبة).

ويعني الفزع كما قال تعالى: (جناحك من الرهب) والارهاب قريب المعنى والدلالة من التخويف.

رابعاً: رباط الخيل:

لا يستبعد ان يكون الافق العام (رباط الخيل) هو المواصلات، وذلك لانه معطوف على القوة، وحتى اذا اعتبرت من المبالغة في الربط كما يذهب بعض المفسرين، فهي وان لا تخرج عن معنى القوة في هذا التقدير،

الا إننا يجب أن لا ننسى ان الجانب (اللوجستيكي) في الحرب يعتبر من أهم مصاديق القوة العسكرية والأمنية.

خامساً: عدو الله وعدوكم:

كما يذهب العلامة الطباطبائي الاعداء هنا كل من يهدد منافع ومصالح المجتمع الاسلامي، سواء من خارجه أو داخله.

وهذه المنافع والمصالح كما تصدق على الكيان السياسي للمجتمع تصدق على اقتصاده وشرفه وطاقاته وكل ممكناته المادية والمعنوية... ووفقا لما يراه هذا المفسر الكبير ان التعبير الذي يعد عدو الله عدوا للمجتمع الاسلامي نفسه انما بيان للواقع وتأكيد في التحريض.

المقترب الاسلامي "الفكرة العامة"

قال الطباطبائي رضوان الله عليه في تفسير الآية الكريمة:

أ_ ... الذي اختاره الله للمجتمع الاسلامي.. هي الحكومة الانسانية التي يحفظ فيها حقوق كل فرد من أفراد مجتمعها، ويراعي فيها مصلحة القوي والضعيف والغني والفقير والحر والعبد والرجل والمرأة والفرد والجماعة والبعض والكل على حد سواء...

ب_ .. فالمنافع التي يهددها عدوهم هي منافع كل فرد، فعلى كل فرد أن يقوم بالذب عنها، ويعد ما استطاع من قوة لحفظها من الضيعة. والاعداد وان كان منه ما لا يقوم بامره إلا الحكومات بمالها من الاستطاعة القوية والامكانات البالغة، لكن منها: ما يقوم بها الأفراد بفرديتهم كتعلم العلوم الحربية والتدريب بفنونها، فالتكليف تكليف الجميع.

ج_ ... ان الغرض الحقيقي من اعداد القوي هو التمكن من الدفع مبلغ الاستطاعة وحفظ المجتمع من العدو

الـــذي يهـــدده في نفســـه وأعراضـــه وأمواله...

د_ ... وبالجملة ان اعداد القوة إنما هو لغرض الدفاع عن حقوق المجتمع الاسلامي ومنافعه الحيوية...

المقترب الاسلامي "القواعد الرئيسية"

"القاعدة الاولى":

ان الأمن القومي الاسلامي يقوم على هـدف مركـزي أساسـي يتجسـد في حماية (المجتمع الاسلامي) من كل انـــواع المخـــاطر الخارجيـــة منهـــا والداخلية... حماية اقتصاده وحريته واستقلاله وسيادته.. الخ.

"القاعدة الثانية":

الأمن القومي الإسلامي يتوسل بالقوة في تحقيق الغرض المركزي المذكور، القوة المادية والمعنوية، ومن الطبيعي أن تخضـع معادلـة اسـتخدام القـوة لموضـــع (التراتبيـــة) في الدرجـــة والمساحة، تبعا للظروف والاجواء والغايات... ومن البديهي ان مصداق القوة واستخدامها خاضع للاحكام الشرعية.

"القاعدة الثالثة":

الأمن القومي الاسلامي يمارس الردع والصد، أي ينتهج الطريقة السلبية في حماية "المجتمع الاسلامي"، انه قوة محذرة مانعة رادعة وينقلب ايجابيا في فترة المواجهة الملموسة.

"القاعدة الرابعة":

الأمـن القـومي الاسـلامي اسـتعداد فعلي مسبق أي هو حقيقة فعلية قائمة قبـل الخطـر المتوقـع ولـيس خاضـعا للمـزاج والتقـدير الشخصـي. وعلـى هـــذا الاســـاس لابـــد مـــن تـــوافر الدراســـات المســـتمرة حـــول حاجـــة المجتمـع الإسـلامي للأمـن مـن أجـل تلبيتها.

"**القاعدة الخامسة**":

الأمن القومي الاسلامي مسؤولية الجميع، الفرد والامة والحكومة والشعب وينبغي أن يكون ذلك في نطاق من التخطيط الدقيق الذي ينسق المهمات ويوزع التكاليف.

"**القاعدة السادسة**":

الأمن القومي الاسلامي لا يشترط فيه وجود (الحكومة الاسلامية)، اذ قد يوجد مجتمع اسلامي بلا حكومة، وحمايته واجب شرعا نعم يكتسب بعدا أعمق وأوسع عندما يتوفر عنصر الحكومة... والدفاع عنها يكون جزء مهما من اطار الأمن القومي الاسلامي العام باعتبارها حكومة المجتمع.

المقترب الاسلامي "الخصائص"

أولاً: الحيوية:

وتعود هذه الخصيصة الى ان الأمن القومي الاسلامي ليس من اختصاص الدولة بل هي مسؤولية الأمة في الاساس، والمؤسسات التي توجدها الدولة لهذا الغرض تمارس دورها بالتعاون والتنسيق مع جماهير الامة.

ثانيا: الشمولية:

وهذا واضح جدا من الهدف الواسع للأمن القومي الاسلامي فهو لا يتعلق بحماية اسرة أو عشيرة أو حكومة أو جماعة متسلطة، إنما هدفه حماية المجتمع الاسلامي بكل مقوماته واساسياته وقيمه ومكتسباته وحماية الحاكم تأتي في سياق المصلحة الاجتماعية العامة.

ثالثاً: العلمية:

الأمن القومي الاسلامي _ علمي _ اذ هو يتوسل بالقوة المدروسة وتخضع القوة لمعادلات الشريعة والظروف، وهذا يستدعي ملاحظة سنة التطور في الحياة ولعل الى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى: (واعدوا لهم ما استطعتم) أي

اقصى درجة ممكنة من الاعداد الفعلي الواقعي.

المقترب الاسلامي "فقرات مهمة"

أولاً: التنمية الاقتصادية:

تتمركز التنمية الاقتصادية الاسلامية في تحقيق الرفاهية لأبناء المجتمع الاسلامي، أي تحسين ظروف المعيشة باشباع الحاجات الطبيعية والمتجددة على نحو معقول وتحقق التوازن المطلوب بين الافراد. وهذه السياسة تشكل نقطة جوهرية في نظرية الأمن القومي الاسلامي لأنها تؤدي الى تماسك المجتمع وابتعاده عن أسباب التناحر والاقتراب الطبيعي والاقتصادي، ويقضي على كل عوامل العنف والعدوان الاجتماعيين المنبعثين من أسباب اقتصادية.

ثانياً: التخطيط الاعلامي:

يستند التخطيط الاعلامي في نظرية الأمن القومي الاسلامي على مبدأ جوهري وحساس للغاية، اذ تنصب الجهود المبذولة في هذا المجال على ربط المجتمع بالمؤسسات والافكار والمفاهيم، وتنأى به عن التمحور حول الشخص الا بمقدار ما يعزز من التواصل بين المجتمع والعقيدة والدولة. وبهذا يتربى المجتمع على قاعدة الارتباط الفكري والمقاييس العقيدية في الحياة.. إن تنمية الحس النقدي لدى الجماهير ضرورة أمنية قومية للدولة أو المجتمع الاسلاميين، والتخطيط الاعلامي هو الذي يتولى هذه المهمة الخطيرة.

ثالثاً: القوة العسكرية:

ترتكز القوة العسكرية في الأمن القومي الاسلامي الى مرتكزين:

أ_ الفكر السياسي الاسلامي الذي يحدد استعمالها ميدانا وغاية.

ب_ الاستراتيجية القومية العسكرية التي تتولى حماية وصيانة النظام السياسي من الأخطار الخارجية وتكون مسبوقة بفكر استراتيجي يقوم بتحديد الاعداء وتشخيص المخاطر ووضع الخطوط العريضة لتأسيس وبناء القوة اللازمة.

وفي ضمن هذا السياق تتم عملية التسليح والتقدم التكنولوجي العسكري ومن ثم تصنيع آلة الحرب بكفاءة ذاتية متطور كذلك عنصر التدريب العالي والذي يتناسب ومتطلبات العصر والظروف.

رابعاً: السياسة الخارجية:

ترتبط السياسة الخارجية للدولة الاسلامية في مجمل النظرية العامة للأمن القومي الاسلامي. فالهدف الرئيسي هو صيانة النظام وحمايته من الخطر المحتمل والداهم، ومن ثم تأتي بعد ذلك القيم السياسية الرسالية التي تريد الدولة توسيعها والتبشير به. وتعتمد السياسة الخارجية مبدأ الاستفادة من الممكنات الجاهزة الى اقصى حد ممكن، وإذا استطاعت ان تمارس دور خلق الممكنات الجيدة تكون بذلك قد قفزت خطوة جبارة في افق الادوار السياسية.

خامساً: التربية العقيدية:

وهي قضية اساسية ومركزية في الاسلام كدين ورسالة واخلاق، وينبغي أن تحتل مكانة صميمية في نظرية الأمن القومي الاسلامي، وذلك إن تربية الاجيال والشباب والشيوخ على الفكرة والمبدأ يحصن المجتمع من الغزو الفكري والسياسي بل وحتى العسكري من الداخل والخارج، وتتمحور التربية الاسلامية في اطار الأمن القومي حول المسؤولية، المسؤولية الشاملة التي يحتل الانسان المسلم عينة حقيقية في استخلاف الله تعالى على الارض.. وربما كان لهذه التربية دورها الاساسي في توسيع

رقعة الدولة الاسلامية وتكثير السواد الاسلامي، وهي اليوم تلعب دورها الجديد في نشر الوعي الديني ومد المظلة الاسلامية في كل ربوع العالم.

ان هذه العينات اذا تجاوبت فيما بينها ضمن تخطيط علمي دقيق تخلق مجتمعا اسلاميا محصنا من كل خطر.

المقترب الاسلامي

"التخطيط _ الغيب"

المدخل:

من العرض السريع السابق لاهم مرتكزات وخصائص وفقرات الأمن القومي الاسلامي نفهم، ان هذا الأمن يعتمد على نقطة مركزية أساسية الا وهي (التخطيط)، أي إن هناك مؤسسات ومرافق ودوائر تضمن العقول المبدعة والمفكرة والقادرة، مهمتها وضع الخطط الكفيلة بصيانة المجتمع الاسلامي وحماية الدولة الاسلامية، بعد أن تتوفر على دراسات مفصلة ودقيقة وواسعة لحاجات هذا المجتمع وهذه الدولة على كافة الأصعدة، وذلك بالمقايسة بين ضرورة الاستقرار والموازنة في الداخل وضرورة الاطمئنان من الخارج ... ان اعقد القضايا التي تواجهها الانظمة اليوم تكمن في الأمن ... اذ هي الحاجة التي تمثل الصميم، وليس من ريب ان هذه الحاجة تتصاعد وتتأكد إذا كان النظام (مذهبيا) أو بعبارة ادق واوضح اذا كان النظام ايديولوجيا رسالياً، فإنه في مثل هذه الحالة يدخل في صراع قيادي مع الأنظمة الفكرية لقيادة الانسان الامر الذي يوسع من الممكنات المضادة، سواء على صعيده الذاتي الشخصي أو على صعيده الموضوعي الدولي.

اذن التخطيط يشكل روح الأمن القومي الاسلامي، هذا ما توحي به

كل ابعاده ومميزاته، ونظرة واحدة وسريعة الى ذلك تكشف عنه.

هنا قد يتسائل البعض عن دور (الغيب) في الموضوع، فنحن نؤمن بأن المجتمع الاسلامي يقوم على اساس الايمان بالله، وإن الله تعالى مع هذا المجتمع ومع حكومته الصالحة أيضاً.. فلابد ان يكون لهذه الحقيقة دور... وفي توضيح هذه المسألة نذكر النقاط التالية:

اولاً:

نؤمن بدور الغيب هنا من حيث المبدأ، ولكن بعد الاستعداد الى أقصى حد ممكن، أي لا ندخل الغيب في التخطيط بل ذلك مستحيل، الا أننا نؤمن في نفس الوقت أن الله لن يتخلى عنا، وليس هناك من تعارض بين الافقين، خاصة اذا علمنا ان مسيرة الكون خاضعة للارادة الغيبية وفق تخطيط.. البداية هي ان نخطط والتوفيق من الله تعالى.

ثانياً:

إن التربية في المجتمع الاسلامي تقوم في جذورها الاولى على الايمان بالله تعالى، ولكن هذا لا يلغي دور القوة في ضبط هذا المجتمع، وهذا الواقع وجدنا له تطبيقا واضحا على عهد رسول الله وأمير المؤمنين، كما إن نفس احكام الاسلام في القصاص والعقوبات تكشف عن موضوعيته.

تطالعنا في هذه الايام أحاديث وافكار حول اهمية الامداد الغيبي، ولكن للاسف الشديد تقحم اقحام غير علمي وغير طبيعي في قضايا الأمن القومي للدولة الاسلامية والمجتمع الاسلامي خاصة عندما ينطلق بعضهم من مفردات هي الاخرى محل نظر الى مدى انطباق الغيب عليها... إن مثل هذه الممارسات الصبيانية قد تؤدي الى خلل في الافهام والافكار، بل قد تقود الى ما هو أكثر خطرا من ذلك.

إن القاعدة العريضة التي تحكم الأمن القومي الاسلامي هي التخطيط أولا والله بامداداته وتسديداته هو الموفق للخير والصواب.